From the SelectedWorks of Mansour M Elbabour

June, 2007

Humanistic Geography and Critical Social Theory (in Arabic)

Mansour M Elbabour

Available at: https://works.bepress.com/mansour_elbabour/5/

Humanistic Geography and Critical Social Theory

Mansour M Elbabour, Ph.D.
Garyounis University

Abstract

By the middle of the 20^{th} century geographical research started to shift from its empirical foundations, based on gathering of "facts" and detailed regional descriptions, and gave way to positivism, thus adopting theoretical-quantitative approaches to investigating spatial phenomena. However, spatial analysis based on such a unilateral paradigm is inclined to be immersed in sheer abstraction to the point where the world is seen through models oblivious of the significance of human experience, sense, awareness, and knowledge. That was the starting point for those rejecting the dominance of positivist science on research in human geography and, therefore, an incentive was made to seek other research alternatives. This paper reviews some of the critique aimed at the positivist paradigm in human geography. It is believed that such critique was fostered through an increased association between geography and philosophy in the last few years, especially the immersion of humanistic geographers in critical social theory.

الجغرافيا البشرية والنظرية الاجتماعية النقدية•

منصور محمد البابور••

مقدمة

أشرت في تعقيب ألقيته في الجلسة الأخيرة للملتقى الجغرافي التاسع الذي انعقد بجامعة قاريونس في مدينة بنغازي خلال الفترة 9-2004/3/11 إلى مُثل الجغرافيا المتجددة دائما، وذلك ضمن سياق فلسفة الجغرافيا ومناهجها وأثر ذلك على البحث الجغرافي. واليوم أرى الفرصة متاحة لتوضيح كثير من النقاط التي أشرت إليها باختصار شديد جدًا في ذلك اللقاء.

غني عن البيان أنه يتعين علينا أن نعمل ونجتهد من خلال فكرنا الجغرافي لكي نرى بوضوح معالم الطريق التي نسلكها ونعرف جيدا مواضع أقدامنا. عند الحديث عن الجغرافيا أو الاستماع إلى إسهامات الجغرافيين، نجد أنفسنا نتساءل عن التقدم في علم الجغرافيا، وماذا يعني هذا التقدم؟ هل يعني إجراء المزيد من الدراسات الإقليمية المطوّلة وفق مناسك فلسفة التباين الإقليمي، أم أن الوهن قد دب في أوصال هذه الفلسفة وثبت عجزها بعد تجربتها. وصار التقدم في الجغرافيا يعني بناء النظرية واختبارها وتنقيحها والاسترشاد بها إقتداء بالعلم الطبيعي ونواميسه التي يسعى لإيجادها والبرهنة عليها. كانت النظرية المنشودة في الجغرافيا البشرية، ولا تزال، هي نظرية الموقع من خلال فون ثونن وفيبر وكريستالر ولوش وغيرهم من الأسماء المألوفة لنا معشر الجغرافيين، وكان السبيل إلى ذلك الثورة الكمية والنماذج الافتراضية-الاستدلالية. يعتمد التفسير وفق هذه المنهجية على التحقق الكمي المؤسس على الملاحظة المباشرة واعتبار ذلك الدليل الوحيد على صدق الفروض.

لقد تعرضت مناهج البحث الجغرافي التقليدية إلى التفحص والتدقيق، ومع انتصاف القرن الماضي بدأ البحث في الجغرافيا ينسلخ عن أصوله الامبيريقية ذات الابستمولوجية والانطولوجية والمنهجية المؤسسة على جمع "الحقائق" وتقديم مقارنات مفصّلة فيما بينها وحلّت محلّه أفكار فلسفية أخرى مُورست من خلالها بحوث الجغرافيا البشرية تحت راية العلم الوضعي[1] الذي ينادي بوحدة المنهج العلمي في سعيه لاختبار الفرضيات وبناء النظريات. أشّر ذلك لظهور

• محاضرة ألقيت في الجلسة الافتتاحية للملتقى العاشر للجمعية الجغرافية الليبية الذي انعقد بكلية الآداب، جامعة سبها خلال يومي 6-2005/12/7 وذلك ضمن ندوة "المناطق الصحراوية: التحول وآفاق المستقبل".

•• أستاذ شرف، قسم الجغرافيا بجامعة قاريونس، بنغازي.

الجغرافيا المكانية التي تمركزت حول عدد من النظريات المكانية مثل نظرية المكان المركـزي، نظرية استخدام الأرض، نظرية الموقع الصناعي، نظرية التفاعل المكـاني، ونمـاذج المنـاطق الاجتماعية الحضرية.

ولكن التحليل المكاني الذي يعتمد المثال الوحيد (كما كان سائدا حتى وقت قريب فـي الجغرافيـا البشرية) ينزع إلى التجريد بشكل مغال فيه بحيث يُنظر للعالم من خلال نمـاذج يـسهل تمثيلهـا ولكنها، بالطبع، لا تأخذ بعين الاعتبار دلالات أحاسيس الناس الذين يعيشون هذا العالم وخِبراتهم. كان ذلك من أقوى حُجج الرافضين لهيمنة العلم الوضعي على بحوث الجغرافيا البشرية ومـدعاة لهم للبحث عن مناهج أخرى. فهل يعني التقدم في علم الجغرافيا البحث في مذاهب فلسفية بديلة جادت بها قرائح الفلاسفة الإنسانيين[2] والانخراط تحت لوائها؟

تهدف هذه الورقة إلى تبيان بعض هذه المناهج النقدية التي تطورت من خلال زيـادة احتكـاك الجغرافيا بالفلسفة خلال العقود القليلة الماضية، ولاسيّما ضـلوع الجغـرافيين البـشريين فـي النظرية الاجتماعية، دافعي إلى ذلك أن هذا الموضوع ربما يغيب كثيرا عن اهتمامات الجغرافي العربي.

بين الجغرافيا والفلسفة: البحث عن البدائل

تميّزت الجغرافيا البشرية خلال العقود الثلاثة الفائتة بموجات متلاحقة من الجدل المثمـر الـذي استهدف فلسفتها، أي النظام الفكري الذي يوجِّه اهتماماتها بوصفها علم العلاقـة بـين الإنـسان وبيئته الطبيعية، ويرشد ممارسيها إلى سُبل الكشف عن هذه العلاقة وتطوير مناهجهم حولها. لقد حفّزهم هذا الجدل إلى التعرض لما يجري في الفلسفة – ما استهدف النظرية الاجتماعية خاصة– من جدل دائم، الأمر الذي دفعهم إلى الخوض كثيرا في مسائل فكرية راهنة. ترتب علـى ذلـك إعادة النظر في أهداف الدراسة الجغرافية وكيفية تحقيق هذه الأهداف، بل والتساؤل عن الجدوى من وراءها. شهدت الفترة نفسها مزيدا من التلاقي بين الجغرافيا والفلسفة بـشكل عـام[3]، كمـا زادت أواصر العلاقة بين الفكر الجغرافي المعاصر والنظرية الاجتماعية بشكل خـاص. تهـتم النظرية الاجتماعية، بوصفها جزءاً من الفلسفة النقدية التي تطورت خـلال العقـود الأخيـرة، بالخصائص الاجتماعية والسياسية والثقافية السائدة فـي المجتمعـات القائمـة، وتقـصي هـذه الخصائص بشكل مباشر بحيث تعبّر عنها بصيغ اجتماعية تتضمن أقل قدر من التجريد. تظهـر فائدتها بشكل خاص في كونها أداة جمع ووصل، فهي تحفظ النتائج التي يتم التوصل إليهـا فـي مجال بحثي معين في شكل مفاهيم يمكن نقلها عبر الوسائط النظرية إلى حقول المعرفة الأخرى. يؤدي ذلك إلى تكوين نظرية اجتماعية عامة عوضًا عن مجموعة من فروع المعرفة المنفـصلة

(بيت، 1998، 6). لقد انبثقت النظرية الاجتماعية عن عدم قناعة بالمفهوم القائل بأن للعقل بِنية منطقية فِطرية، فالمنطق اجتماعي/ثقافي في الأصل وسياسي في الهدف، وبالتالي تتأثر الأحكام المنطقية (العقلية) بمعتقدات غير منطقية ومعانيَ ثقافية، كما تتأثر بالجسد والعاطفة بالإضافة إلى العقل. تتضح جدوى الفلسفة (كما يرى الناقدون الاجتماعيون) بوصفها نظرية اجتماعية تنظر للمفاهيم في إطار ثقافي وليس بوصفها مبادئ عامة.

بدأ الاهتمام بالنظرية الاجتماعية في الجغرافيا مع بداية عقد السبعينات عندما وجه نفر من الجغرافيين نوعاً من الاحتجاج النقدي ضد المغالاة في بناء النظرية والموضوعية والتحليل الكمي وغير ذلك من الأهداف التي نادى بها الوضعيون خلال عقد الستينات. وكان الدافع وراء هذا الاحتجاج أن دعاة التفسير الوضعي تغاضوا عن حقيقة أن الإنسان فرض نفسه (من خلال قيمه وأخلاقه وخِبراته ونظمه ...) على العالم المحيط به (جيلك، 1974:ص200)، ولهذا وجب توجيه الاهتمام إلى حياة الناس العادية الغنية بالخبرات سعيا إلى تقويم تفكيرهم، وبالتالي سلوكهم، على ضوء هذا الفهم 'الإنساني' الكامل للأفراد والجماعات والأماكن. هكذا بدأت النزعة الإنسانية في الجغرافيا ووجد أنصارها في مدارس الفلسفة النقدية مثل المثالية[4] والماركسية[5] والوجودية[6] والفينومينولوجيا[7]، بالإضافة إلى نظرية "الإبتناء"[8]، ما كانوا يبحثون عنه من أطر معرفية يصوغون فيها البدائل للتقاليد والنماذج التجريبية التحليلية التي كانت سائدة.

يرى أنصار المنهجية الماركسية (أو المتطرِّفة) الخلل في العلم المكاني الوضعي من زوايا مختلفة من بينها تركيزه على الأنماط المكانية وإغفال السيرورات الاجتماعية التي أوجدتها[9]، الانحياز إلى الرأسمالية الأمر الذي يتعارض مع الموضوعية التي ينادي بها العلم الوضعي[10]، بالإضافة إلى تجاهل القوانين المكانية العالمية (التي يبحث عنها التحليل المكاني الوضعي) لظاهرة التمايز بين الشعوب والمجتمعات المختلفة فيما يتعلق بنظمهم المكانية الخاصة.

يتلخص هدف الجغرافي البشري المتأثر بالفلسفة المثالية في محاولة فهم التطور الحاصل في المظاهر والأنماط الثقافية التي تغطي سطح الأرض وكشف النقاب عن الفكرة أو الأفكار التي وراءها. أي ينصب الاهتمام على فهم الأثر المعقول والمنطقي الذي تسببه الظاهرة وليس على تفسير الظاهرة في حد ذاتها (جيلك،1974:ص194). ولهذا فإن تفسيره لهذه المظاهر الثقافية يتضمن تصنيفا لكل البيانات المتوفرة، ويشمل ذلك مقاصد الأفراد المعنيين بالدراسة و'النظريات' التي يتصرفون من خلالها، والنظر إلى تصرفاتهم بوصفها استجابات عقلية للمواقف التي تعرضوا لها كما تراءت لهم في حينها (ص 202). بهذا الشكل فإن الفلسفة المثالية تمكن الجغرافيين البشريين من تقديم تفسيرات تعتمد على الطبيعة الخاصة للسلوك البشري النظري وإعادة التفكير في أفكار الناس الذين يسعى الباحث إلى تفسير سلوكهم، وهذا ما يمكنهم

من شرح السلوك الإنساني بطريقة نقدية تحليلية وتأويله دون الاستعانة بالنظرية. الشعوب المختلفة، في نظر جيلك، تستخدم الأرض بطرائق مختلفة "تؤدي إلى إيجاد أنماط من الحقول الزراعية ومراكز العمران المتميّزة. لم تأتِ هذه الأنماط اعتباطا بل هي انعكاس لتفكير الناس الذين ابتدعوها" (نقلا عن هولت–ينسن، 1999، 94).

أما البديل الآخر للفلسفة الوضعية فقد اعتمد على كل من الفينومينولوجيا التي تؤكد مسائل المعرفة ومعنى أحاسيس الإنسان الحياتية وخبراته، والفلسفة الوجودية التي تعنى بالسلوك الحياتي للأفراد والجماعات، أي أن الفلسفتين تشتركان في الهدف الرئيس وهو تقصي المعاني والقيم وفهمهما. وإذا ما قارنا هذا البديل بسابقه الذي يعتمد على 'المثالية' فإننا نراه ينال حظوة أكثر عند الجغرافيين لأنه ينظر للإنسان في تفاعله الحسي مع محيطه الاجتماعي والطبيعي (هارفي، 1972: ص129). تقارن آن بوتمر (1974: ص37) بين وجهتي نظر الوضعيين وأشياع الفينومينولوجيا الوجودية (أي فينومينولوجيا العالم المُختبر)[11] وترى أنهما على طرفي نقيض حيث أن " ... أنصار الفينومينولوجيا الوجودية يطمحون إلى توضيح الكل المتمثل في الخِبرات الحسيّة مستعينين في ذلك بمصادر متنوعة، علمية وغير علمية، يختارونها". وهذه تشمل تفهمهم وإدراكهم الحسي[12] للبيئة أو للأشياء المحيطة بهم، ونمط تفكيرهم، أي بكل ما يتعلق بمقاصدهم ومداركهم ووعيهم لما حولهم (بوتمر، 1974: ص37).

اختلاف وجهات النظر بين الجغرافيتين المتطرّفة والإنسانية دفع بعض الجغرافيين البشريين إلى البحث في نظرية الإبتناء من أجل التوفيق بين ثنائية البناء والسلوك التي تدعو، كما يقول صاحبها عالم الاجتماع الإنجليزي جيدنز، إلى النظر في الطرائق التي يؤثر بها البناء في سلوك الجماعة، وبالتالي، الطرائق التي يؤثر بها السلوك الجماعي في البناء. بمعنى آخر، الإبتناء هو السيرورة التي تنتج البِنى الاجتماعية وتعيد إنتاجها في الحياة الاجتماعية والنظم الاجتماعية من خلال استخدام أفراد المجتمع للقواعد والموارد المتفاعلة مع بعضها. وهي بذلك تتعلق بنشأة الجماعات وتطوّرها بوصفها "نظماً" ذات أنماط من علاقات التفاعل بين الناس الذين هم أصلا مسؤولون عن ابتداعها.

السؤال الذي يطرح نفسه الآن، ولعلكم تنتظرونه بعد عرضنا السابق، هو: إذا ما كانت المفاهيم الإنسانية قد استخدمت في البحث الجغرافي، فما نتائج هذا الاستخدام؟ هل تركت الفينومينولوجيا، على سبيل المثال، أثرا باقيا في جغرافية المكان ينبئ عن التزام كامل بمفاهيمها ونهوجها؟ هذا ما سوف نحاول الإجابة عنه في الجزء التالي من هذه الورقة.

الجغرافيا الإنسانية[13]

برزت "الجغرافيا الإنسانية"[14] في مطلع سبعينيات القرن العشرين بوصفها أكثر ردود الفعل النقدية قبولا وتطوراً لدى جماعة الجغرافيين البشريين الذين جاهروا بعدم رضاهم التام بطرائق الوضعية منبهين في ذات الوقت إلى فلسفات ومناهج بديلة. ولكن بينما ركّز جماعة الجغرافيا المتطرّفة على التفاوت الاجتماعي واهتمت المثالية بدور العقل (الوعي) بوصفه وعاءاً للأشياء المادية، نجد جماعة الجغرافيا الإنسانية مهتمين بشكل خاص بالمعاني والدلالات الاجتماعية، حيث كان سبيلهم إلى ذلك "الذاتية" التي تعتمد النص واللغة، مؤكدين دور الأفكار والكلمات والأفعال. فهل يكمن السبب وراء سعيهم لاكتساب الطرائق الإنسانية في طواعية هذه الطرائق للبحث الجغرافي واستجلاء كنه المكان؟ ولكن تطبيق المناهج الإنسانية في البحث العلمي قد يدفع بالجغرافي للخوض أكثر في المسائل الفلسفية والوعي الإنساني، فهل يسعفه ذلك على إجراء التحليل الجغرافي المطلوب؟ للإجابة عن مثل هذه التساؤلات يلزمنا إعادة النظر في كتابات الجغرافيين الإنسانيين التي يمكن وصفها بإتباع النهج الفينومينولوجي، وبالتحديد، سيتم التركيز على اجتهادات كل من توان (1974، 1976، 1977)، وريلف (1970، 1976)، وانتريكين (1976، 2001) في هذا المجال.

يسعى أشياع الجغرافيا الإنسانية لمحاولة إعادة فهم للبيئة وللفضاء الجغرافي فهماً سابقاً على العلم، وسبيلهم إلى استعادة هذا الفهم الأصلي أو الأساسي هو فينومينولوجيا العالم المُختَبَر التي تبعدهم عن 'العلموية' وتجريدها الموضوعي، لإيمانهم بأن نماذج العلوم الطبيعية لا تسعفهم في الوصول إلى فهم كامل للسلوك الإنساني حيث أن هذه النماذج المجرّدة لا تتضمن، بطبيعة الحال، شيئاً عن المقاصد والأهداف والقيم التي يسير البشر على هديها. وعلى الرغم من عوزهم لمنهجية واضحة تمام الوضوح، باستثناء تفضيلهم للسبل غير الإمبيريقية (مثل الحدس[15]) للحصول على المعرفة، إلا أن هدفهم يبقى واضحا: تحديداً لا ينتابه الشك لبنية الخِبرة الإنسانية كما تتجلى في البيئة الجغرافية وفي المكان[16]. الفضاء الوجودي[17] هو محط اهتمام الجغرافي الإنساني، وهو فضاء غير هندسي يتمركز حول الذات باعتبار أن الفرد هو مركز كل نشاط الإحساس. وعلى مقياس أكبر فإن الفضاء الوجودي يمثل منطقة – أو مكاناً – معانيَ وقيم يشترك فيها قاطنوها، وهو يتدرج في الحجم من فضاء الشارع والجيرة إلى الفضاء الوطني الذي يشمل البلد كله. وبهذا التعريف، الفضاء الجغرافي لا يمت بصلة للفضاءات المجرّدة للهندسة، بل يستقي معناه من مقاصد الإنسان وأهدافه. المسافة، مثلا، في الفضاء الوجودي لا تقاس بطولها أو تكلفتها الاقتصادية، ولكنها "تقاس بأهمية المكان بوصفه مركزاً للمعاني ... لكي تكون قريبا من شخص ما يعني أن تكون قريبا من ذلك الشخص من الناحية العاطفية وليس بالضرورة أن تكون

قريباً منه بحساب المسافة الطولية. لكي يكون المرء 'قريباً' من مكان أو لاندسكيب يعني أن ذلك المكان أو تلك اللاندسكيب تحملان دلالات خاصة للفرد" (انتريكين، 1976، 625-26).

ربما حظي مفهوم المكان بالقدر الأعظم من اهتمام أشياع الجغرافية الإنسانية قلما حظي به مفهوم آخر من المفاهيم الأساسية في الجغرافيا. فالمكان، بالنسبة للجغرافي الإنساني، ليس مجرد "تجميع للأشياء والأحداث المشاهدة عملياً، ولكنه مخزن للمعاني والدلالات" (انتريكين، 1976، ص626).

يستعرض توان في كتابه 'توبوفيليا'[18] (1974) نطاقاً واسعاً من المدركات الحسية والمواقف والقيم، بما في ذلك الوصف التأملي للاندسكيب في ماضيها وحاضرها. وهو يركز على دور الحواس وأثرها على إدراك الإنسان لبيئته وسلوكه الناتج عن هذا الإدراك، ويعزّز ذلك بأمثلة عديدة مستقاة من الثقافة والفولكلور والميثولوجيا.[19] كما يبرز دور البيئة الخارجية مثل عوامل الثقافة، والبيئة الطبيعية، والتقييم الجمالي للأشياء، وكذلك أشكال التعبير عن شغف المكان والولع به. لذلك يتطلب فهم التباين في مواقف الإنسان وسلوكه تجاه البيئة، من وجهة نظر توان، أن نلِمّ بالاختلافات الفسيولوجية لبني الإنسان (البصر، السمع، القدرة على الاحتمال،...)، وكذلك الاختلافات البيولوجية النوعية والعمرية، بالإضافة إلى التباين في الطباع، والقدرة، والمواقف. فهو يرى أن الرجال يسلكون مسالك تختلف عن مسالك النساء في إدراك البيئة وتقويمها، كما أن المرحلة العمرية التي يمر بها الإنسان تلعب دورا مهما في وجود مستويات مختلفة للخِبرة بالمكان.

يهدف توان في كتابه الثاني[20] (1977) إلى محاولة "فهم الطرائق التي يستخدمها الناس في تنظيمهم للفضاء الجغرافي والمكان وإضفاء معانٍ على كليهما"، وسبيله إلى توضيح ذلك هو مفهوم 'الخِبرة' الذي يشكل، مع مفهوم الثقافة، المحور الرئيس في كل أجزاء الكتاب. يتساءل توان كيف يختَبِر الإنسان الجانح إلى الخيال، والكمبيوتر في الوقت نفسه، العالم ويفهمه. محاولة فهم وتقصي الطرائق التي يسلكها الأفراد في تنظيمهم للفضاء الجغرافي والمكان[21]، وإضفاء معنى لهذين المفهومين هو ما سعى إليه توان. فالمكان هو الطمأنينة، والراحة والسكينة، وهو المركز الوطيد للقيم الشخصية، وهو الملاذ الآمن. بينما يتضمن الفضاء الجغرافي معنى الحركة، والانفتاح، والحرية، وخطر التهديد. نحن في حاجة إلى الاثنين معا، فحياتنا وأفكارنا وسلوكنا تعكس تنقلنا بين هذين القطبين سعيا وراء تنظيم خِبراتنا. يعرّف الفضاء والمكان من خلال تشابك الحس والشعور والمفاهيم، حيث تتنوع الخِبرة ما بين خِبرة مباشرة وأخرى غير مباشرة، ولكن يبقى عالمنا خلاصة كل هذه الخِبرات. يخوض توان في الفلسفة الإنسانية لاستجلاء معاني الخِبرة والآراء حول طبيعتها وتتضمن معالجته للموضوع الاستعانة بمصادر

ومفاهيم تتدرج ضمن أطر متنوعة تنوع الأسطورة والتاريخ والعمارة والطفولة والازدحام...، وهي، بدون شك، تثري معرفتنا بالخِبرة بالفضاء والمكان (توان، 1977، نقلا عن داونز، 1978).
يؤكد توان (1976: ص272) أهمية الإلمام بالتاريخ والجغرافيا التاريخية لأجل فهم أكثر للجغرافيا الإنسانية. ولا يعني ذلك مجرد "تتابع الأحداث ولكن رسوخها الواعي في ذاكرة الجماعة". المطلوب من الجغرافي الإنساني أن يعرف الماضي الحقيقي للمكان، ولكن قد لا ينبئ هذا الماضي عن الهوية الحالية لهذا المكان، إذ قد يبتدع قاطنوه هويته الحالية من خلال انتقائهم لمراحل من تاريخهم، حيث "يصير الماضي بهذا المعنى المعدّل مصدرا لانتحال هوية مفتعلة". يقرّ توان (1976:ص272) بأن وصف جوهر المكان لا يقل صعوبة عن وصف الفرد الذي: " هو حصيلة تكوينه البيولوجي، وبيئته، وتاريخه، والمؤثرات الطارئة عليه، ونظرته للعالم، وكيفية إظهاره لهويته". وبالمثل "فإن هوية المكان تكمن في خصائصه الطبيعية، وفي تاريخه، وفي كيفية استخدام قاطنيه لماضيهم من أجل إذكاء وعيهم به".

يعد كتاب ريلف[22] (1976) نقطة تحول رئيسة في البحث الجغرافي من التزام شبه تام بالتنظيم المكاني وتحليل الأنظمة كما كان شائعا خلال عقد الستينات، إلى توجيه الاهتمام إلى خِبرات الناس المباشرة في حياتهم العادية. تدور فصول الكتاب حول مفهوم المكان المحور التقليدي للدراسات والبحوث الجغرافية، ولكن هذه المرة بنظرات مختلفة، مستمدة من الفينومينولوجيا والوجودية وغير ذلك من مذاهب الفلسفة النقدية، بهدف استجلاء جوهره ورسم هويته. ولكن الحس بالمكان غير قابل للتحليل العلمي لأنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة ومَجرَياتها المختلفة، الشيء الذي ربما يفسر إعراض العلماء عن سبر أغواره. ولكنّنَا نجد ريلف يضطلع بهذه المَهَمّة ويقدّم لنا تفاصيل مشوِّقة عن ظاهرة المكان.
يدعو ريلف إلى التخلي عن النماذج المجردة والنظريات التي تنزع إلى تبسيط العالم وتسهِّل تمثيله، وحصر الاهتمام، عوضاً عن ذلك، 'بالعالم المُختَبَر'[23] (أو عالم الإدراك الحسِّي)، أي بالمحيط والأوضاع التي يعيش فيها الفرد ويعرفها ويختبرها مباشرة أثناء حياته العادية. يكفل تطبيق الأساليب الفينومينولوجية ملاحظة ظواهر الخِبرة الإنسانية ووصف معانيها ورموزها بدقة متناهية بحيث " تكشِف الأماكن عن نفسها في خِبراتنا أو وعينا بالعالم المختَبَر، وبالمقومات المميزة والأساسية للمكان واللامكان كما تفصح عنها اللاندسكيب" (ص 6–7).
طوّر ريلف عدة محاور رئيسة استعرض من خلالها العلاقات بين أشكال الفضاء والمكان وتحديد العناصر المختلفة للخِبرة بالمكان ودرجة شدتها، حيث يرى وجود ارتباطات نفسية عميقة بين الناس والأماكن التي يعيشون فيها ويحسّون بها. كما حلّل طبيعة هوية الأماكن وهوية قاطنيها من خلال انطباعاتهم الذهنية، وقدم العديد من الأمثلة التي تشهد على أن الحسّ بالمكان والارتباط

به هو ما يوجد الأماكن ويشكل اللاندسكيب. يورد ريلف مدى واسعاً من المعاني والدلالات للفضاء والمكان المتنوعين بتنوّع أنماط الخِبرة والوعي بهما: الفضاء غير ملموس ولا شكل له، ولا يمكن وصفه وتحليله بشكل مباشر. ولكنه يوفر المحيط الذي توجد فيه الأماكن، وبالتالي فهو يستقي معناه من أماكن معينة. هناك "الفضاء الواقعي أو الفطري"[24]، وهو فضاء السلوك الغريزي وأحاسيس اللاوعي الذاتي الذي نعمل ونتحرك فيه عادة من غير تفكير. يقابل ذلك "فضاء الإدراك الحسي"[25] الناشئ عن الوعي الذاتي، وهو فضاء ذو بنية واضحة ومعنى ولا يمكن فصله عن خِبرات الإنسان ومقاصده. وهذا النوع من الفضاء هو الذي يتحول إلى أماكن تحمل دلالات شخصية معينة. بينما يشكل "الفضاء الوجودي" البنية الداخلية للفضاء كما تبدو لأفراد الزمرة الثقافية في خِبراتهم الحقيقية بالعالم. يتميز هذا النوع من الفضاء بأنه مقبول من كل أفراد الجماعة لأنهم تأهلوا اجتماعيا طبقا لمجموعة مشتركة من الخِبرات والرموز والدلالات. الأماكن في الفضاء الوجودي مراكز للمعاني أو محطَ نوايا وغايات. وليس من الضروري أن تكون المعاني والوظائف المحددة للأماكن هي نفسها أو متشابهة عند كل الجماعات الثقافية، ولا أن تكون المراكز محددة بوضوح بواسطة ظواهر مادية، ولكن يجب أن يتوفر لها جزء باطنيّ يمكن خِبرته بوصفه شيئا مختلفا عمّا هو ظاهريّ. ينقسم الفضاء الوجودي إلى "فضاء مقدس"[26] حافل بالرموز والمراكز المقدسة والأشياء ذات المعنى، وآخر "جغرافي"[27] له اسم يعرف به ويؤهله، وللناس فيه وفرة من المعاني والدلالات إذ يعبر عن معارفهم الأساسية بالعالم ويعكس خِبراتهم وروابطهم المقصودة مع بيئاتهم.

الأنواع الأخرى من الفضاء التي يوردها ريلف تشمل: "فضاء العمارة" الذي يتضمن معالجة متعمدة لإحداث الفضاءات ويمتاز بتنوع التعبير من خلال تصميم المباني الفردية، وهو بذلك يعتمد كثيرا على عبقرية مبدعه وأفكاره المجردة، و"فضاء التخطيط"، وهو وثيق الصلة بفضاء العمارة. يذكر ريلف أيضا "فضاء الإدراك العقلي"[28] ويصفه بأنه "فضاء متجانس ، متساوي القيمة في كل مكان وفي كل الاتجاهات. إنه فضاء متماثل، حيادي، وذو أبعاد؛ فضاء الهندسة والخرائط ونظريات التنظيم المكاني. وهو نوع الفضاء الذي يستوجب التفكير الجدي، والذي قد تكون دلالته قليلة للخِبرة المباشرة لولا حقيقة أن الأشكال الهندسية والخرائط والنظريات كثيرا ما تكون أساس المخططات والتصميمات" (ص 25).

آخر أنواع الفضاءات التي يشير إليها ريلف هو "الفضاء المجرد"[29] الذي هو "فضاء العلاقات المنطقية التي تمكننا من وصف الفضاء من غير أن نجسد بالضرورة هذه الأوصاف في مشاهدات عملية. إنه إبداع حر للخيال الإنساني وبهذه الصفة فهو انعكاس مباشر لما يحققه التفكير الرمزي"، حيث "تهمل كل الاختلافات العينية المدركة بخِبراتنا الحسيّة ؛... الأماكن في

مثل هذا الفضاء مجرد نقط ، رموز تشكل عنصراً واحداً فقط ضمن نسق كلـــي مـــن العناصـــر المجرّدة" (ص 26).

يخلص ريلف إلى أن الأماكن تختلف في تفاصيلها الدقيقة وفي دلالاتها بقدر اخـــتلاف الخِبـــرات الإنسانية ومقاصدها: "هكذا تتباين أشكال الفضاء التي ندركها بوصـــفها أمـــاكن لأنهـــا جـــذبت مقاصدنا وركّزتها، وهذا التركيز ما يميّزها عن الفضاء المحيط بينما تبقى جزءا منـــه. ولكـــن معنى الفضاء، وبالتحديد الفضاء المُختبَر، ينبثق من الأماكن الوجودية والإدراكيحـــسية للخِبـــرة المباشرة"[30] (26–28).

يقارن ريلف بين هوية الأماكن كما يراها قاطنوها وبين هويتها كما تبدو للغرباء عنها. يـــستخدم لهذا الغرض مفهومي 'الانتماء' و 'اللاانتماء' ويحدد لكل منها مستويات مختلفة، مفترضـــا أنـــه كلما نجحت البيئة في إيجاد حس قوي بالانتماء تأهلت أكثر لأن تصبح مكاناً. أو، بتعبير آخـــر، كلّما أحسّ الفرد بأنّه راسخ في باطن المكان تأصّلت بذلك هويّته مع ذلك المكان.

تتدرج مستويات الانتماء من 'انتماء وجودي' كامل، يكون فيه الحِسّ بالمكان في أشدّ صـــوره، إلى انتماءات 'متعاطفة' و'سلوكية'، وأخرى غير مباشرة[31]. على نقيض ذلك، قد يكون الفـــرد معزولاً أو منفّراً من المكان ما وصفه ريلف باللاانتماء. تتدرّج مستويات اللاانتماء أيـــضا مـــن 'عرضَية'، أو غير جوهرية، إلى 'سلوكية' و'وجودية'. ومما لا شـــك فيـــه أن مثـــل هـــذا التصنيف النوعي لأشكال الانتماء واللاانتماء يساعد كثيرا في توضيح مواقف الـــسكان المقيمـــين بالأماكن وكذلك مواقف الغرباء عنها، وهذا يتفق مع هدف ريلف في التحري الكامـــل لـــلإدراك الحسي لدى الأفراد واستخلاص الصور الذهنية الناتجة عن هذا الإدراك. كما إنـــه مـــن خـــلال المستويات المختلفة للانتماء واللاانتماء تكتسب الأماكن المختلفة هويّات مختلفة.

لعل براعة ريلف تظهر في استخدامه لمفهوم 'اللامكان' نقيضاً لحِسّ المكان، ويقصد بـــه "الاستئصال غير المكترث للأماكن المميزة وإحداث لاندسكيب قياسية نتيجة لعدم المبالاة بمغزى المكان وأهميته". ولتحديد المواقف المؤدية إلى حالة اللامكان وشواهده في اللاندسكيب يـــستعير ريلف مفاهيم من الفينومينولوجيا والوجودية للتفريق بين الأماكن التي تحسّ عن أصالة وتلك التي تحسّ عن غير أصالة. يبين ريلف أن الموقف الأصيل من المكان، أو الحسّ الأصيل بـــه، هـــو "الخِبرة المباشرة الحقيقية بكامل مركَّب هُويَّة الأماكن الذي لا يأتي بطريق غير مباشر ومحـــرّف من خلال سلسلة من العادات الاجتماعية والفكرية المبنية على الأهواء الشخصية حول ما يجـــب أن تكون عليه تلك الخِبرة، ولا بإتباع تقاليد نمطية" (ص 64). حالة اللامكان تحصل من القبول غير الحذر للأشياء المبتذلة والرخيصة التي تندرج ضمن 'سقط المتاع'، وأيضا من المغالاة فـــي تحقيق الكفاية كغاية في حد ذاتها. تظهر آثار ذلـــك مـــن خـــلال وســـائل الإعـــلام، والثقافـــة

الجماعية[32]، ونفوذ الشركات متعددة الجنسيات والسلطات المركزية، والمخططين غير المنتمين، ما يؤدي في النهاية إلى "تقويض أهمية المكان بالنسبة للأفراد والثقافات معاً، والاستبدال السطحي بلا مبالاة للأماكن المتنوعة ذات الدلالة في العالم بفضاءات مجهولة وبيئات قابلة للمبادلة" (ص 143).

يحذّرنا ريلف من العبث بالأماكن المميّزة والمنوّعة التي يرتبط بها قاطنوها ارتباطاً وثيقاً يماثل علائقهم الحميمة مع غيرهم من الناس، منبِّهاً إلى ما لا يُحمد عُقباه إذا ما تجاهلنا المعانيَ التي يحملها المكان لقاطنيه عند التخطيط للاندسكيب وتحويرها، ويرى في مآسيَ من صُودرت أملاكهم ورُحِّلوا عن أراضيهم أبلغ دليل على ذلك.

خاتمة

هل يعني التقدم في الجغرافيا الالتحاف بالثوب 'الإنساني' والسير مع التيارات المنهجية المضادة للوضعية والمساهمة بالدراسات التي تندرج ضمن المنهج السلوكي، أو ضمن البنيوية والواقعية، أو الفينومينولوجيا، الشيء الذي ربما أعطى الجغرافيا المعاصرة ميزة العلم النقدي وجعلها تلحق بمرحلة ما بعد الحداثة.

كما إنني أتساءل هل ما زلنا في وطننا العربي نعيش جغرافية ما قبل الخمسينات (الإقليمية- الوصفية)، أم أننا تجاوزناها، مرورا بمرحلة العلم الوضعي والبحث الكمي والنظري، حيث نحاول اللحاق بفترة السبعينات 'الإنسانية' و'البنيوية' وما بعدها ؟ إن معلوماتي المحدودة بطبيعة الحال عن ما يكتب ويناقش من أبحاث حديثة في الجغرافيا العربية لا تسعفني لأجيب عن هذا التساؤل بالدقة العلمية المطلوبة، ولكنني، للأسف، أميل إلى الاعتقاد بأن الجغرافيا العربية المعاصرة تعاني أزمة منهج شديدة!

وإذا ما ضيقنا دائرة بحثنا قليلا ونظرنا إلى عينة من البحوث التي قدمت خلال بعض ملتقيات جمعيتنا الفتية نجدها تدور بالكامل تقريبا حول التوزيعات المكانية للظاهرة موضوع الدراسة ونتائجها الكمية، وهي غُفل، في جُلِّها، حتى من الأطر النظرية لهذه التوزيعات.

أعود فأقول بتوالي الثورات المنهجية والمثل الإرشادية paradigms في علم الجغرافيا بشكل سريع نسبيا خلال نصف القرن الماضي ما أنتج تنوعا مثمرا في أساليب البحث الجغرافي، إلا أن الرؤية التراكمية أحادية الاتجاه لا تزال هي السائدة عند من يمارسون الجغرافيا في وطننا العربي. وذلك باستثناء محاولات قليلة ، محلية ومتناثرة، يمكننا وصفها 'بالتحديث' من أجل استيعاب العلم الوضعي وتطويعه للبحث الجغرافي. وربما حاول أصحابها المزج بين المنهج

الإقليمي/الوصفي من ناحية، والتحليل الإحصائي للفروض المشتقة من الملاحظات الميدانيـــة أو الاستنتاج النظري من ناحية أخرى.

في حقيقة الأمر يواجه الجغرافيون العرب الآن مزيدا من التحديات الانطولوجية والابستمولوجية التي أوجدتها حركة ما بعد الحداثة[33]. هل يجب على الجغرافيين العرب الإقتداء بنظرائهم مـــن الجغرافيين في مختلف أقطار العالم ومباشرة مرحلة النقد الذاتي المطلوبة الآن أكثر من أي وقت مضى؟ لا شك أن فكر ما بعد الحداثة سيستمر باقيا معنا شئنا أم أبينا، لـــذلك يجـــب أن نكـــون منفتحين لتقبل الآراء والأفكار الجديدة، وأرى من الأجدى أن نتحمل المسؤولية ونُدليَ بدلونا فـــي هذا الميدان النقدي بحيث نكون مستعدين للدفاع عن وجهات نظرنا وعن مناهجنا.

إنني أدعو جيلنا الجديد من الجغرافيين الشبان إلى العمل الجاد من أجل استيعاب المناهج البديلـــة وتطويرها (وهي متاحة لنا من خلال أبحاث من سبقونا إلى باب أبحـــاث النظريـــة الاجتماعيـــة النقدية)، وذلك لفهم أكثر عمقا للبيئة وعلاقة الإنسان بها. وأن لا ينحصر الاهتمام فقط بالنماذج المجردة والنظريات، ولكن أيضا بالعالم المُختَبَر، أي المحيط والأوضاع التي نعيش فيها ونعرفها ونخبرها ونحسها بشكل مباشر في حياتنا العادية، وهذا ما سوف يكفـــل لنـــا توضـــيح ظـــاهرة 'المكان'، المفهوم الأساسي في الجغرافيا، من خلال تنوّع خِبراتنا به وغزارتها.

الشيء المهم أن يستمر التنوع والاختلاف في المواقف ووجهات النظر في الجغرافيا، وهـــذا مـــا ميز الفكر الجغرافي عبر تاريخه الطويل ولا شك أن تباين المواقف سيستمر في المستقبل إثـــراء للبحث الجغرافي وتمكينا لكل جيل من الجغرافيين بأن يشغل أفراده دورا هامـــا فـــي عـــصرهم ومجتمعهم. حقا لقد تغيّرت الجغرافيا كثيراً في طرائقها وأســـاليبها، ولكنهـــا لا تـــزال تـــستنير بتقاليدها العريقة في القدم. فهل يعني ذلك عود على بدء؟

الهوامش:

[1] positivism (الوضعية): مذهب فلسفي ينسب إلى الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي أوجست كونت (1798-1857) يجزم بأن العلم هو المصدر الوحيد للمعرفة وهو بذلك يتعارض بشكل مباشر مع الميتافيزيقيـــا. تتعلـــق المناهج الوضعية بتكوين تعميمات امبيريقية) أي تعتمد على الملاحظة والاختبار) علـــى شـــاكلة قـــوانين تتعلـــق بالظاهرة التي يمكن ملاحظتها. تعتبر هذه المناهج عماد ما يعرف بالمنهج العلمي وتحتل مكـــان الـــصدارة فـــي منهجية وفلسفة العلوم الطبيعية.

[2] humanism : الفلسفة الإنسانية: فلسفة معاصرة تركِّز قيم الإنسان وخصائصه وسلوكه وعلى قدرته على تحقيق الذات عن طريق العقل، وترفض الإيمان بأية قوة خارقة للطبيعة.

[3] إذا ما كان اهتمام الفلسفة بالجغرافيا موغل في القدم وربما يعود إلى الفترة الكلاسيكية، فإن اهتمام الجغرافيا بالفلسفة حديث العهد نسبيا. وعموما، فقد تميزت العلاقة بين الجغرافيا والفلسفة خلال الجزء الأكبر من القرن الماضي بكونها "أحادية الجانب ينكب فيها الجغرافيون على دراسة كتابات الفلاسفة ... الأمر الذي لم يترك ميراثا ينبئ عن تفاعل فكري بين الفريقين" (انتريكين، 2001، ص 694). ولكن، توخيا للإنصاف في حكمنا، ربما يكون من الأنسب أن نعيد ما ذكره كيسي، أستاذ الفلسفة بجامعة نيويورك، في هذا الشأن وهو " أن الفلسفة و الجغرافيا يفتقران لبعضهما البعض، حيث هناك مجال للاستفادة من هذه الحاجة المشتركة " (كيسي، 2001 ، 683). من بين الآثار الأدبية الجغرافية التي عززت أواصر التلاقي بين الجغرافيا و الفلسفة في الفترة المعاصرة نذكر كتابي توان : *Topophilia : A Study of Environmental Perception, Attitudes, and Values* (1974) و *Space and Place* (1976)، و كتاب ريلف : *Place and Placeless ness* (1976). بالإضافة إلى العديد من البحوث والمقالات المنشورة في الدوريات الجغرافية المرموقة التي أشرنا إلى قليل جداً منها في ثنايا هذه الورقة. تجدر الإشارة أيضاً إلى كتاب Edward S. Casey, *The Fate of Place: A Philosophical History(1997)* الذي يندرج ضمن هذا السياق.

idealism[4] المذهب التصوري (المثالي) : فلسفة تقول بأن الأشياء المادية لا توجد مستقلة عن الوعي أو العقل ولكنها كامنة على شكل بنى تصورية في العقل.

[5] يُعزى ظهور الجغرافيا الماركسية (أو المتطرفة) في بداية السبعينات إلى الصراع السياسي الذي عمّ أوروبا وأجزاء أخرى من العالم الغربي في نهاية الستينات مستهدفاً الفقر والتفرقة العنصرية وحرب فيتنام. ترتب على هذا الصراع نشوء حركات سياسية/اجتماعية نشطة مثل الحقوق المدنية والنُسوية والبيئية بالإضافة إلى الجماعات المناهضة للحرب وحركة اليسار الجديد.

[6] existentialism الوجودية : فلسفة ظهرت في القرن العشرين تؤكد على الذاتية وحرية الفرد ، ويرى أنصارها أن الأفراد مسؤولون عن سلوكهم وتشكيل مصائرهم.

[7] Phenomenology : ضرب من الفلسفة الحديثة يعنى بالوصف المباشر للظواهر (الأشياء) كما هي مدركة وليس الظواهر في حد ذاتها، أي القيام بتقصي ووصف الإحساس الواعي للفرد أو الجماعة بدون الاهتمام بموضوعية هذا الإحساس. وبهذا المعنى فهي تهدف إلى إعادة توجيه العلم والمعرفة في مسارات إنسانية.

[8] Structuration Theory : منهج في النظرية الاجتماعية يبحث في تفسير العلاقة بين الأفراد الدارين والفعّالين والنظم والبِنى الاجتماعية المرتبطين بها.

[9] على سبيل المثال، قد يقوم الجغرافي بتمثيل الفصل بين سكان المناطق الحضرية حسب الطبقة الاجتماعية والعِرق ولكنه لا يقوم أبدا بالبحث عن السيرورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أوجدت مثل هذا الوضع غير العادل، هكذا يرى أشياع "الجغرافيا المتطرفة" في التحليل الماركسي البديل المناسب لفهم التفاوت الطبقي وتقصي أسبابه الاجتماعية.

[10] ينحاز التحليل المكاني بطبيعته إلى جانب الرأسمالية حيث يبحث دائما عن المواقع ذات الكفاية الاقتصادية العالية لإقامة المشاريع الصناعية والتجارية والخدمية الأمر الذي يندرج أيضا ضمن التعريف الاقتصادي المبني على الطبقية.

[11] يعد مفهوم "العالم المختَبَر" life world من أهم المفاهيم التي تعتمدها فلسفة الفينومينولوجيا لدراسة العلاقة مع العلوم الاجتماعية. وهو عالم الخِبرة المباشرة السابقة على مفاهيم العلم، ويختلف كثيراً عن عوالم العلم الموضوعية لاعتماده على التأويل أو الإحساس الذاتي وليس على الحقائق الخارجية أو الدلائل . يمكننا اكتشاف هذا العالم إذا ما علقنا المفاهيم التي جاءتنا بطريق العلم، حيث أن العلم الإمبيريقي يستخدم التجريد الذي لا يقوم أساسا على الخِبرة. كما أن مفهوم "العالم المختَبَر" يشكل الرابط الفكري بين فلسفتي الفينومينولوجيا والوجودية إذ يمثل في كلتيهما المحيط الذي تجري فيه الخِبرة الإنسانية، وبالتالي، فهو أساسي لفهم الإنسان. ولكن بينما ينفي الوجوديون إمكانية السمو فوق الوجود المادي لعالم الخِبرة المباشرة، يؤمن هوسرل، مؤسس الفينومينولوجيا، بأن مثل هذا السمو (epoche) هو ما يقودنا إلى التبصر الجوهري ، وبالتالي، إلى أسس المعرفة (أنظر: انتريكين، 1976، ص 620).

[12] Perception. لعل أولى نتائج التأثير الفينومينولوجي في البحث الجغرافي جاءت بشكل غير مباشر عن طريق تبني مفاهيم ومنهجية علماء النفس الاجتماعيين في دراساتهم لتفهم الإنسان لبيئته وإدراكه لها.

[13] يعتمد هذا الجزء من الورقة على بحث سابق للمؤلف. أنظر: منصور البابور، "معنى الوجود في المكان: نظرات في الجغرافيا والفينومينولوجيا". جامعة الإمارات العربية المتحدة، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد (20) عدد (2) أكتوبر 2004 ، الصفحات 147- 172.

[14] مصطلح استخدم للمرة الأولى في الجغرافيا من قِبل توان في كتاباته التي أصدرها في مطلع سبعينيات القرن العشرين معتمداً على طرائق الفلسفة الإنسانية واصطلاحاتها وذلك لإعطاء وزن أكبر للإبداع الإنساني.

[15] Intuition : الحدس هو إدراك الأشياء في وجودها أو ماهيتها إدراكا مباشرا غير نظري، إنه، كما يقول بعض الفلاسفة، نفوذ إلى الأشياء بدل الدوران حولها (أنظر: الطاهر وعزيز، المناهج الفلسفية (1990، ص 42-48). تشكل المعرفة الآتية بطريق الحدس أحد أهم عناصر النهج الفينومينولوجي حيث أن الحدس هو الوسيلة الوحيدة لحصول التبصر الجوهري essential insight. يصف العالم الإنساني الذي ينتهج النهج الفينومينولوجي الإحساس الواعي بدون الاهتمام بالتحقق من جوهر الإحساس عمليا (أنظر: انتريكين، 1976، 629-630).

[16] الاهتمام بمفهوم المكان أصبح ملازماً للجغرافيا الإنسانية في سعيها لفهم عالم الإنسان من خلال دراسة علاقة الناس بالطبيعة، ومن خلال خبرات هؤلاء الناس وأفكارهم وأحاسيسهم وتعلقهم بالمكان.

[17] existential space

[18] Topophilia: شغف المكان {الكلمة مركبة من الأصل اليوناني -topo وتعني مكان، وphilia وتعني شغف أو ولع شديد}

[19] Mythology: الأساطير المتعلقة بالآلهة والأسلاف والأبطال الخرافيين عند شعب ما أو ثقافة ما.

[20] *Space and Place*

[21] يشار إلى المكان place بمرادفات متعددة مثل "الإقليم" ، و "المنطقة" ، و "الموقع" وغيرها من المفاهيم مما قد يخلق نوعا من الإرباك.

[22] *Place and Placelessness*

[23] life world: راجع حاشية رقم 11.

[24] pragmatic or primitive space

[25] perceptual space

[26] يقصد بذلك أنه بالنسبة للناس المتدينين، الأماكن مقدسّة وواقِعة ضمن فضاء رمزي وقدسي غـامر. بالنسبة لغير المتدينين فإن فحوى المدلول الرمزي للأماكن أضعف من ذلك بكثير، فهي تحدد في الغالب بالمعاني أو الدلالات الملصقة بالمباني، وبأشكال الأرض، أو بمناطق في مواقع معينة. ولكن في الحالتين كلتيهما تشكل الأماكن مراكز اختبار ذات معنى ضمن نطاق الفضاء المُختَبَر للحياة الاجتماعية العادية.

[27] توضح بعض الدراسات التي أجريت على "مظهر المدينة" بنية الفضاء الجغرافي بشكل جيد. فقد قام جوردون كولن (1971، نقلا عن ريلف 1976، ص 18) بتحليل الخِبرة بالفضاء الحضري من وجهة نظر الفرد في الشارع، ساعيا إلى إثبات العناصر الأساسية لتلك الخِبرة، حيث اهتم بشكل خاص بأهمية الإبصار المتسلسل، وأهمية الأماكن ومحتواها. بينما يفحص كيفن لينش (1960) الانطباعات أو الصور الذهنية التي لدى الناس عن المدن، مفترضا أنها تعبِّر عن خِبراتهم إلى حد كبير جدا، وذلك في محاولة لتحديد عناصر مظهر المدينة التي تبرز أكثر وضوحا في تلك الانطباعات. يقصد لينش بوضوح مظهر المدينة "سهولة التعرف على أجزاءها وتنظيم هذه الأجزاء في نمط متناغم ومترابط منطقيا... فالمدينة الواضحة هي التي تتميز بسهولة إدراك الناس لأحيائها أو معالمها أو طرقاتها وبسهولة ضم هذه الأجزاء إلى بعضها في نمط شامل" (لينش، 1960، ص 2-3).

[28] cognitive space

[29] abstract space

[30] يذكر نوربرج – شولز (1971 ، نقلا عن ريلف، ص 26) أن " الفضاء الواقعي يدمج الإنسان مع بيئته الطبيعية 'الفطرية'، وفضاء الإدراك الحسي أساسي لهويته كشخص، ويجعله الفضاء الوجودي منتميا إلى كلية اجتماعية وثقافية، ويعني فضاء الإدراك العقلي أن باستطاعته التفكير والتأمل في الفضاء، بينما يزوده الفضاء المنطقي ... بالوسيلة التي يصف بها الفضاءات الأخرى". يضيف ريلف إلى هذه الأنواع من الفضاءات تلك المبنية والمخططة التي تدمج الإحساس والتفكير. فهل هناك تدرج في أشكال الفضاء من الفطري إلى المجرد؟ في نظر ريلف، "فإن ذلك غير صحيح لأن الأفكار الناتجة عن الإدراك العقلي في كل مكان في ثقافاتنا التقنية المعاصرة تؤثر في خِبرتنا بالأماكن وابتداعنا لها. يعد الإلمام بالخرائط والمخططات جزء أساسي من خِبراتنا بالفضاء الوجودي وفضاء الإدراك الحِسِّي – لهذا فنحن نستخدم خرائط الطرق والشوارع لنهتدي بها ليس فقط في المدن غير المألوفة لنا ولكن أيضا في المدن التي نعيش فيها، فالصورة الجلية لأي إقليم أو منطقة حضرية تظهر في شكل خريطتها. تفيد تصورات الإدراك العقلي بالوعي واللاوعي على حد سواء بوصفها أساسًا لابتداع كل البيئات التي نعيش فيها تقريبا؛ وحتى "الفضاء الطبيعي الفطري" مؤسس عند أغلب الناس في الفضاءات المخططة هندسية الشكل في المدن أو الأرياف"(ص 26).

[31] vicarious: مُحَسٌّ عن طريق شخص آخر وليس بشكل مباشر وذلك بطريق التعاطف أو قوة الخيال.

[32] الثقافة التي تتبناها وتؤولها وتبثها وسائل الإعلام.

[33] Postmodernism: ما بعد الحداثة، آخر مآثر الفلسفة والآداب والعلوم الاجتماعية جاءت بوصفها ردّ فعل لتغيّرات الحداثة التي شهدتها المجتمعات الإنسانية خلال النصف الثاني من القرن العشرين. تنادي فلسفة ما بعد الحداثة بشكل عام بالتعددية التي فُسّرت في الجغرافيا الإنسانية بالدعوة إلى الاهتمام بالأماكن المميّزة والمنوّعة وجدوى التحليل الدقيق لتفاصيلها العديدة المختلفة مقابل التماثل المُعيب الذي يُلغي صفة المكان في المجتمعات المعاصرة.

المصادر:

البابور، منصور محمد. الجدل المعرفي في الجغرافيا: بين الوضعية المنطقية والنزعة الإنسانية. بحث قدم في الندوة العلمية التي عقدت بكلية الآداب والتربية بجامعة قاريونس خلال الفترة 14-1991/5/16 حول "إشكالية تطبيق المنهج العلمي في العلوم الإنسانية". (غير منشور).

________. "معنى الوجود في المكان: نظرات في الجغرافيا والفينومينولوجيا". جامعة الإمارات العربية المتحدة، *مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية*، مجلد (20) عدد (2) أكتوبر 2004، الصفحات: 147-172.

هونديريك، تيد (محرر). *دليل أكسفورد للفلسفة*. ترجمة نجيب الحصادي، بنغازي: المكتب الوطني للبحث والتطوير (2005).

ريلف، ادوارد. *المكان واللامكان*. ترجمة منصور محمد البابور، بنغازي: المكتب الوطني للبحث والتطوير (قيد الطبع).

وعزيز، الطاهر. المناهج الفلسفية. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1990.

.

Buttimer, Annette.1974. *Values in Geography*. Association of American Geographers, Resource Paper No. 24. .

______. 1977. Comment in Reply. *Annals of the Association of American Geographers* 67(1): 180-83.

______. 1976. Review of "Place and Placelessness". *Annals of the Association of American Geographers* 67 (4): 622-24.

Casey, Edward S. 1997. *The Fate of Place: A Philosophical History*. Berkeley, University of California Press.

_____. 2001. Between geography and philosophy: What does it mean to be in the place-world? *Annals of the Association of American Geographers* 91 (4): 683-93.

_____. 2001. On Habitus and Place: Responding to My Critics. *Annals of the Association of American Geographers* 91 (4): 716-23.

Downs, Roger M. (1978). Review of Tuan's "Space and Place". *Geographical Review*( ): 375-376.

Entrikin, J. Nicholas. 2001. Hiding Places. *Annals of the Association of American Geographers* 91 (4): 694-97.

______. 1976. Contemporary Humanism in Geography. *Annals of the Association of American Geographers* 66 (4): 615-32.

Gibbons, Wendy. 2001. " 'Critical of What?': Past and Current Issues in Critical Human Geography". History of Inellectual Culture

Gregory, Derek. 1978. *Ideology, Science and Human Geography*. London: Hutchinson.

Guelke, L. 1974. An idealist alternative in human geography. *Annals of the Association of American Geographers* 64: 193-202.

Harvey, David. 1969. *Explanation in Geography*. London: Arnold Publishers.

Holt-Jensen, A. 1999. Geography: History & Concepts. (Third Edition). London: SAGE Publications.
Hooper, Barbara. 2001. Desiring Presence, Romancing the Real. *Annals of the Association of American Geographers* 91 (4): 703-15.
Johnston, R.J., Philosophy and Human Geography: An Introduction to Contemporary Approaches, 1983. London: Edward Arnold.
Johnston, R.J., Derek Gregory, Geraldine Pratt and Michael Watts, editors, 2000, The Dictionary of Human Geography (4th Edition). Blackwell.
Lowenthal, David. 1961. Geography, Experience, and Imagination: Towards a Geographical Epistemology. *Annals of the Association of American Geographers* 51(3): 241-60.
______. 1975. Past time, present place: Landscape and memory. *Geographical Review* 65(1) 1-36.
Lynch, Kevin. 1960. *The Image of the City*. Cambridge, Massachusetts: The M.I.T. Press.
Peet, Richard. 1998. Modern Geographical Thought. Oxford: Blackwell.
Relf, Edward. 1970. An inquiry into the relations between phenomenology and Geography. *Canadian Geographer* XIV (3): 193-201.
______. 1976. *Place and Placelessness*. London: Pion.

Tuan, Yi-Fu. 1974. *Topophilia: A Study of Environmental Perception, Attitudes, And Values.* Englewood Cliffs, Prentice-Hall.
______. 1976. Humanistic Geography. *Annals of the Association of American Geographers* 66 (2): 266-76.
______. 1977. *Space and Place. The Perspective of Experience*. Minneapolis: University of Minnesota Press.
Young, Terence. 2001. Place Matters. *Annals of the Association of American Geographers* 91 (4): 681-82.
Walmsley, D.J. 1974. Positivism and Phenomenology in Human Geography. *Canadian Geographer* XVIII (2): 95-107.